مجلة الجامعة المغاربية

العدد الأول ـ السنة الثانية ـ 2007 م

القرصنة والحركة المرابطية أو غياب الحكم المركزي

د. بوخريسة بوبكر
قسم علم الاجتماع
جامعة عنابة - الجزائر

استهلال :

❁ مثلت معركة (Las navas de Tolosa) والتي ينعتها العرب المسلمون بمعركة "العقاب" والتي وقعت يوم 16 جويلية عام 1212 م انهزاما هيكليا للنظام العربي – الإسلامي. لقد كانت كارثة على الحضارة العربية الإسلامية ؛ حيث تم على إثرها نقل ميدان المواجهة الإسلامية – المسيحية ، من جنوب أوروبا باتجاه منطقة شمال إفريقيا ؛ التي هي العمق البشري ، والجغرافي والحضاري للأمة العربية – الإسلامية . وعلى إثر تلك المعركة ، تجلى ضعف ووهن الدولة الموحدية . إذ بدأت منطقتا المغرب الأدنى والأوسط تتجهان نحو التحرر ، من سلطة الموحدين ليوضع حد للوحدة الثانية . هكذا تتفتت أجزاء الإمبراطورية الموحدية في منتصف القرن 13 م إلى ثلاث دويلات هشة وضعيفة وهي : الإمارة الحفصية ، وإمارة بني عبد الواد (تلمسان) ، وإمارة بني مرين في المغرب الأقصى . وفي هذا السياق يقول المؤرخ الفرنسي ش.أ جوليان (Ch.A.Julien) : " لا يمكن اعتبارها (أي الدويلات الثلاث)... إلا دولا من الدرجة الثانية ، لم تظهر فيها دولة واحدة ، لها حيوية

وقوة شخصية الموحدين . كانت كل دولة منها تحاول أن تعيد هذه الممالك؛ أي حتى منتصف القرن 16 م , إنما هو جهد باطل لإحياء الماضي ... " [1] .

كما كثرت الخلافات المذهبية والنزوات الفردية ، بين الإمارات العربية الإسلامية المجهرية والمتقاسمة للأندلس ، على وجه التحديد مثل : غرناطة ، ملقا ، إشبيليا وطليطلة . والتي شكلت سببا جوهريا في خسارة ما تبقى من الإمبراطورية العربية – الإسلامية ، في شبه الجزيرة الإيبيرية ، بالإضافة إلى فساد الأخلاق ، بين أفراد الأسر الحاكمة . لقد أدت هذه المواجهات الصليبية ، مع المسلمين إلى استفاقة النزعة الشوفينية والقومية للأسبان والأوروبيين عموما ، خاصة باتجاه سكان شمال إفريقيا . وقد مثلت هذه الحرب إذن ، امتدادا لحروب صليبية أطلق عليها الإسبان اسم حرب الاسترداد (Reconquista) ؛ حيث لم تكن دويلات شمال إفريقيا بالنسبة للأسبان ، نقطة الانطلاق لتهديد كيانها فحسب وإنما كانت أيضا ، البعد العسكري والمالي والديني الذي حال دون الانكسار النهائي ، للحضارة العربية – الإسلامية رغم هشاشة الإمارات المغربية وتمزقها .

وهنا تجب الإشارة إلى أن رجال الدين الإسبان وكذلك العاملين بمحاكم التفتيش كانوا يبثون روح التعصب على الدوام ، واضطهدوا المسلمين بالخصوص ، مع سقوط غرناطة عام 1492 م . لقد مثلت مملكة غرناطة أهم قاعدة ، في مواجهة الصليبيين الإسبان لكنها ، هوت شيئا فشيئا ، على رأي الإسبان : " حبة حبة مثل حبات الرمانة " (Grano a grano se ha de comer lagranada) . وقد تضمنت وثيقة استلام غرناطة ، احترام تقاليد المسلمين وحماية ممتلكاتهم وديانتهم ، مع استقلال إداري ذاتي . لكن مع روح التعصب الديني المسيحي والنزعة القومية ،

(1) *CH.A Julien, Histoire de l'Afrique dy nord T2, Paris, 1952, 132.*

خاصة رجال الدين ومحاكم التفتيش التي نظمت حملات وحشية ضد المسلمين ، لحملهم عن التخلي عن دينهم أو الرحيل عن إسبانيا باتجاه شمال إفريقيا .

I. عوامل الصراع الإسلامي المسيحي

إن التحليل السوسيولوجي للمواجهة ، بين الإسبان المسيحيين والعرب المسلمين وما تميزت به من قسوة ، يبرز أن عوامل هذا الصراع تتمثل في :

أولا ، إن القوة البحرية المسيحية المتطورة والجنود الإسبان المنظمين والمنضوين تحت لواء النزعة القومية ، مكنت الإمبراطورية الإسبانية من نقل الحرب إلى السواحل المغاربية ، مثل : طنجة ، مرسى الكبير ، الجزائر ، بجاية ، تونس وطرابلس ... بخلاف وضعية الجيش الإسلامي ، الذي ميزته المؤامرات والدسائس بين العائلات الحاكمة ، بالإضافة إلى الصعوبات المالية ، التي كان يعاني منها الجند والمقاتلون[1].

ثانيا ، كان للأوضاع الاقتصادية – الاجتماعية والسياسية للدول المغاربية الأثر البليغ في السياسة الإسبانية اتجاهها ؛ حيث تميزت الدويلات المغاربية الثلاث الحاكمة آنذاك، بحالة ضعف شديد ، مما شجع على تفككها السياسي وانتشار التمردات والفوضى . هذه الوضعية ، جعلت من هذه الإمارات ، مجالا للتنازع والتمرد الذي غابت فيه السلطة المركزية : حيث تقلصت سلطة بني عبد الواد ، في المغرب الأوسط، كما تمكنت البلاد الواقعة بين مملكة عبد الواد والمملكة الحفصية من

(1) *A.Benachenhou, Connaissanced du Maghreb, Alger, 1971,*

الاستقلال . إذ مثلت الموانئ الممتدة بين جربة والمغرب جمهوريات منفصلة ، تمارس أعمال القرصنة ، على امتداد البحر المتوسط [1] .

هكذا تمكن الإسبان والبرتغاليون من الاستيلاء عليها ووضعها تحت سيطرتهم ، على شكل " محميات " كانت عبارة عن مراكز نقل وتجميع خيرات البلاد لنقلها نحو أوروبا. وقد تركزت الهيمنة الإسبانية ، في منطقتي المغرب الأوسط والأدنى بصورة رسمية ، على إثر معاهدة " توردي سيلاس " التي أبرمت ، بين أسبانيا والبرتغال برعاية البابا عام 1494 م . والتي خصص بموجبها الفضاء الاجتماعي المغاربي الواقع شرقي " بنون دوفيليز (حجر باديس) المغربية ، كمجال حيوي للإمبراطورية الإسبانية . مكنت هذه الهيمنة الإسبان والبرتغاليين من المكوث على الأشرطة الساحلية والموانئ المغاربية ، قرابة 300 سنة . رغم معاداة المجموعات البشرية التي تحيط بهم والتي كانت تتعامل معهم ، في مجال التبادل التجاري على الأقل .. قام المستعمرون الإسبان والبرتغاليون ، بعد حماية مستعمراتهم بأحزمة أمنية ، تمتد على طول الشريط الساحلي المغاربي ؛ بدءا من أغادير حتي مدينة بنغازي ، بممارسة أنواع القمع والبطش ، ضد الأندلسيين بأسبانيا (غرناطة) ... وأمام هذه التجاوزات ، لم يجد هؤلاء من سبيل سوى الفرار واللجوء إلى منطقة شمال إفريقيا ، ومصر ، وسوريا وتركيا ، وقد بلغ عددهم عدة ملايين[2] .

ما يمكن التأكيد عليه ، بشأن الاجتياح الإسباني للفضاء المغاربي ، ما يلي :

1- النزعة القومية والتعصب الديني ، اللذان غذيا الحرب بين الإسبان والمسلمين، في إطار حرب الاسترداد . وقد اشتد وقع ذلك على المسلمين ، مع حملات رجال

(1) د. محمد خير فارس ، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديث : تاريخ الجزائر الحديث ، من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، مطابع ألف باء – الأديب – دمشق ، 1969 ، ص : 15 – 16 .

(2) A/Hamid Benachenhou, Op.cit , p: 107

الدين المسيحيين وعلى رأسهم البابا ، لشن حرب صليبية ضدهم ، خلال القرن الخامس عشر . وكان ذلك انتقاما وثأرا لسقوط القسطنطينية عام 1453 م ، على يد دولة إسلامية جديدة ناشئة ، يمثلها الأتراك الذين واصلوا زحفهم حتى بلغوا أسوار مدينة فيينا (النمسا) ...

2- الحرب التي كان يشنها القراصنة المسلمون ، المنطلقون من موانئ شمال إفريقيا ، ضد السفن التجارية والموانئ الإسبانية . وقد روع ذلك سكان الموانئ الإسبانية ، الأمر الذي كان وراء رفعهم شكاوى إلى الملكة ، أعلنوا فيها عجزهم عن دفع الضرائب لها ؛ خصوصا وأن عمليات القرصنة كان يشجعها المسلمون النازحون من إسبانيا إلى شمال إفريقيا .

3- عوامل أخرى ، ترتبط باستراتيجية الانتشار والاحتواء التي تتبعها الإمبراطورية الإسبانية ؛ إذ كانت المناطق الساحلية المحصنة بشمال إفريقيا ، بمثابة ضمان لعملية الاتصال البحري ، وتأمينها بين الشواطئ الإيطالية – الإسبانية ، في إطار مشروع الإمبراطورية الجرمانية المقدسة والذي كان يشمل القارة الأوروبية برمتها . ورغم العوائق التي حالت دون تحقيق المشروع الإسباني ، فإن الإسبان عاودوا محاولاتهم منذ 1508 م . حيث وضعوا يدهم على منطقة المغرب الأقصى (حجر باديس) وتمكنوا عام 1509 م ، من الاستيلاء على مدينة وهران بالمغرب الأوسط وكذلك مدينة بجاية عام 1510 م ، حيث قاموا بنهبها . كما استولوا على مدينة طرابلس ، في السنة نفسها . وهكذا أصبحت عدة مدن ساحلية ، تحت السيادة الإسبانية وأجبرت على دفع الضرائب لها [1] .

(1) د. بو خريسة ، العوائق الأيديولوجية وموضعة المعرفة السوسيو – تاريخية (الفضاء المغاربي نموذجا) ، مجلة كتابات معاصرة، عدد 41 ، بيروت ، 2000 ، ص : 116 – 122.

II. الأتراك المسلمون في إفريقيا

عملت الحرب ، في شبه الجزيرة الإيطالية عام 1519 م ، على إخماد الطموحات الإسبانية ، في الهيمنة على المناطق الساحلية المغاربية . مما حول اهتمام هذه الإمبراطورية ، باتجاه أوروربا عند انتخاب ملك إسبانيا " شارل " إمبراطورا على الإمبراطورية الجرمانية – المقدسة ... كما كان لتدخل الأخوين " بربروس" و " عروج" تحت الراية العثمانية دور كبير في كسر شوكة الإسبان . وعقّدت هذه المتغيرات الجديدة ، من وضعية أسبانيا ، في الشريط الساحلي المغاربي ، مما دفع بها إلى التخلي عنه ... وإذا قبلنا جدلا ، أن مجيء العرب الفاتحين إلى منطقة شمال إفريقيا، كان على أساس عوامل روحية (دينية بحتة) خاصة في المراحل الأولى من الدعوة المحمدية ، ونشر الرسالة مع البعثات الأولى على يد الخليفة الثاني " عمر " ومن تبعه من بعده ... فإن دخول الأتراك الفضاء المغاربي يعتبر حدثا تاريخيا متفردا، بالنظر إلى انعدام أي علاقة بين الدويلات المغاربية وقتئذ ، والدولة العثمانية الجديدة.

ويشير بعض المؤلفين إلى أن بعض الحراس الخاصين ببعض الأمراء المغاربة ، كانوا من الأتراك ، خاصة في المناطق الجنوبية من شمال إفريقيا . والجدير بالذكر أن دخول الأتراك العثمانيين إلى شمال إفريقيا لم يعرف بكيفية دقيقة ، خاصة وأن عملية الإشراف عليه لم تكن تركز على مخطط محكم أو دراسة مضبوطة ؛ ذلك أن عملية الاستيلاء تخرج عن نطاق العملية العسكرية الكلاسيكية ، ومن هنا يصعب وصف عملية الدخول هذه : فهل يمكن اعتبارها عملية احتلال ؟ أم غزوا عسكريا ؟ أم دخولا عن طريق استخدام الأسلحة ؟ لذلك لا يجد كثير من المحللين حرجا في القول ، بأن الصدفة تكون قد لعبت دورا كبيرا في هذه الوصاية . وهذا بطبيعة الحال هو ما جعل سلطان إسطنبول يرسل ميليشيات بسيطة ، لمساعدة الحاكم أو من ينوب عنه ، على بسط وإحكام نفوذه (وذلك عوض إرسال معمرين ، أو تجار أو جيوش للاحتلال

والسيطرة العسكرية) والذين كان يعينهم الباب العالي (La sublime porte) ، وصار تعيينهم فيما بعد من قبل حكام البلدان المغاربية ذاتها .

كانت المناسبة الأولى لظهور الأتراك تحت راية قائد بحري يعرف باسم"عروج" ، في منطقة الشمال الشرقي لمدينة قسنطينة (وهي بجاية) . وتفرد هذا القائد بشجاعة فذة ؛ فهو مغامر وبحار لم تكن تربطه في السابق أية علاقة بالباب العالي . وقام بمحاصرة بجاية ، لكن تخلى مناصروه عنه ، ولعدة ظروف أخرى ، فإنه تخلى بدوره عن مشروع الاستيلاء عليها . واضطر هكذا للتخلي عنها واتجه شرقا ، نحو ميناء جيجل ليحتله ، عام 1515 م . هذه الفترة التاريخية ، التي التقى فيها الأتراك بسكان شمال إفريقيا ، مهمة جدا . وذلك لأنها كانت بمثابة بداية وممهدا للعلاقة الخاصة ، التي ستنشأ بينهما مستقبلا . ومن الملفت للانتباه أن "عروج " كان قائدا محنكا ومغامرا كبيرا ، وهو مسيحي ذو أصل إغريقي (جزيرة كريت) ولكنه فضل الإسلام فيما بعد . وهذا ما مكنه من الانخراط في البحرية العثمانية ، لتأمين معاشه . ويذكر المؤرخون بصدده ، أنه بفضل الجرأة الخارقة التي تميزه والشجاعة النادرة ، تمكن من قيادة سفينة حربية وبعدها عدة سفن حربية أخرى . وذلك في إطار مواجهة السفن الحربية الإسبانية والمسيحية .

لقد مكنت هذه الخصائص الفريدة الرجل من الانضمام تحت لواء أخيه " خير الدين بربروس " ومن ثم تحت لواء السلطان العثماني . وهكذا حاز على اعتراف الباب العالي به ، كقرصان رسمي (Corsaire) يقدم خدماته للدولة العثمانية . وهذا ما أدى إلى تدعيمه بالجند والمعدات الحربية ، ليتمكن من رفع رايتها ؛ من خلال سيطرته على مدينتي شرشال والجزائر . ومن إنجازاته أيضا أنه حارب الإسبان في مناسبات عديدة وملك تلمسان ، ومات محاربا وبطلا عام 1518 م . وعلى إثر ذلك ، كلفت

السلطة العثمانية أخاه " خير الدين بربروس " لوضع يدها رسميا على منطقة شمال إفريقيا : ليبيا ، وتونس ، والجزائر . وفي هذا السياق يجدر ذكر أن مجيء الأتراك العثمانيين ، كان قد صادف حدثا آخر بالغ الأهمية تمثل في قدوم الأندلسيين واستقرارهم بشمال إفريقيا ، بعد طردهم أو فرارهم من إسبانيا .



لقد ساعد هذا الاستقرار بلدان شمال إفريقيا على تحقيق دفع وتنمية ، في ميادين الحياة المختلفة: الاقتصاد ، والفلاحة ، والحرف نظرا للخبرة والتطور الكبيرين اللذين كان يتمتع بهما الوافدون الجدد من الأندلس . وهو ما ساعد أيضا ، ، على تدعيم قوة وقدرة الدول المغاربية العسكرية وفنون الحرب ، خاصة في مرحلة كانت في أشد الحاجة إليها ، لمواجهة الحملات الصليبية التي تقوم بها كل من إسبانيا والبرتغال . وهكذا تجسدت سيطرة الإمبراطورية العثمانية ، من خلال تنصيب " خير الدين

بربروس " – من قبل الباب العالي – كحاكم على مدينة الجزائر . وقد تمكن من الوقوف في وجه الإسبان وطردهم . ولقب بالباي لار باي (باي البايات) (Bey des beys) . وهذا ما مكنها ، فيما بعد ، من بسط نفوذها على كل من تونس وليبيا ، باستثناء منطقة المغرب الأقصى التي حافظت على استقلالها ولم تخضع للحكم العثماني .

وعليه لم يكن للدولة العثمانية أي أثر يذكر ، على منطقة المغرب الأقصى الذي لم يقع تحت سيطرة الجنود الأتراك الانكشاريين ، باستثناء جيش الأشراف : السعديين والعلويين ؛ الذين استعانوا في تدريبه وتنظيمه ببعض الخبراء العسكريين الأتراك . وفي سياق تثبيت ولاته على بلدان شمال إفريقيا ، لجأ الباب العالي إلى دعمهم بالجنود الانكشاريين ؛ وهم يمثلون جنود نخبة يعودون إلى أصول عديدة : الأناضول ، ألبانيا ، القوقاز ، أرمينيا ، البندقية ، إيطاليا ، سردينيا واليونان .... إلخ . والذين يعتبرون من حثالة الناس في مجتمعاتهم . ولكنهم يرسلون إلى البلدان المغاربية وكأنهم أسياد . ولا يستثنى من ذلك حتى الحكام ، أمثال : البيلارباي ، الباشوات ، الدايات ، والبايات ؛ وهم في معظمهم لا يتمتعون بهذا الجاه والتقدير في بلدانهم الأصلية . وبمجرد ما يجمع أحدهم بعض المال يعود إلى تركيا ... فيأخذ معه ألبسة فاخرة ، ليظهر في مظهر الرخاء والترف أمام مواطنيه ويتباهى أمامهم ، إذ هو ربما ابن لأحد العمال أو المزارعين... " .

يمكن القول بأن الدولة التركية اعتمدت ، لتدعيم تواجدها ، على الجيش البري وعلى البحرية أيضا . وذلك حتى تمكن قبضتها على الدولة ، وكذلك على السكان والأهالي . وهو ما جعل وطأة الجند الأتراك ثقيلة على المواطنين الذين عانوا الاضطهاد . وقد كان من بين أسباب الانحطاط ، أن الأتراك كانوا يفتحون أبواب

الميليشيات لأي كان ، حتى لأناس كانوا قد أدبوا أو أدينوا ... وهكذا صارت الميليشيات المسلحة لا مبدأ لها : صارت ترتكب المخالفات ضد البدو والقبائل . هذه المواصفات التي ميزت الحكم التركي ، جعلته غير مرغوب فيه من قبل السكان الأصليين . لذلك لا يمكن إيجاد تفسير للمدة الزمنية التي بقوا خلالها في الفضاء الاجتماعي المغاربي ، إلا في تخلي السلطة المركزية في إسطنبول عن الحكام والمواطنين المغاربيين في الأوقات الصعبة والخطيرة ، خاصة مع بداية القرن 18 م .

إن الوجود التركي في منطقة شمال إفريقيا ، لم يكن له تأثير كبير في حركية المجتمع أو تطوره ، بكيفية عامة ، سواء من الناحية الدينية أو الاجتماعية . كما لم يتم انصهار العنصر التركي في النسيج الاجتماعي - الثقافي للمجتمع المغاربي ، إلا في حدود ضيقة جدا ؛ وذلك من خلال بعض الانكشاريين الأتراك ، والشركس أو الألبانيين الذين تزوجوا من مغاربيات . ويطلق على العناصر المنحدرة من هذه الأصول اسم : الكلوغيين . وفي الميدان الديني لم يكن للأتراك أي دور بارز في الحياة الروحية والدينية للمواطنين ، الذين بقوا يعتنقون المذهب المالكي ، بخلاف الأتراك الذين كانوا يعتنقون المذهب الحنفي . وقد وجدت السلطات التركية في المرابطين والأجواد الوسيلة للتحكم في الأهالي وذلك من خلال منحهم الحكم . والذي انحصر في عائلتين أو ثلاث عائلات كبيرة ، أطلق على قادتها أسماء مثل " الآغا " أو " القائد " وهذا ما يتطلب منه دفع ضريبة ، تدعى " حق البرنوس " .

لقد كانت آثار الوجود التركي على الجزائر سيئة . حيث تتضح معالم الحكم التركي من خلال خصائص الجنود الانكشاريين في الروايات ، والتي منها : الغلظة والدموية. وهو ما قد يفسر عدم التفاف الجزائريين حولهم للدفاع عن مدينة الجزائر ضد الحملة

الفرنسية ، ولم يتسن لهم ذلك إلا بعد انهزام الأتراك وزوال الحكومة التركية . كان ذلك من خلال مقاومة الأمير عبد القادر ، والمقراني ، والشيخ الحداد ، إلخ .

III ظاهرتا القرصنة والحركة المرابطية

أمام الاجتياح المسيحي الصليبي للشريط الساحلي المغاربي ومدنه الرئيسية ، التي كانت تمثل مناطق الاتصال بالعالم الخارجي ، أحس الأهالي بالاختناق والضجر . بالإضافة إلى عجز الدويلات المغاربية ، والتي تواطأ بعض من حكامها مع الإمبراطورية الاستعمارية الإسبانية ، عن حمايتهم . وقد زاد الطين بلة ، توافد الآلاف من الأندلسيين على البلدان المغاربية هربا من حملات التنكيل والتعذيب التي مورست ضدهم ، من قبل رجال الدين ومحاكم التفتيش بإسبانيا . كان المهاجرون يحملون حقدهم على الإسبان أيضا ، ويروون على إخوانهم في شمال إفريقيا ما لاقوه من تعذيب ، واضطهاد أو مساس بمقدسات الإسلام والمساجد . لهذه العوامل ، ثارت ثائرة سكان وأهالي البلدان المغاربية ، الذين هبوا لمساعدة ونجدة إخوانهم الأندلسيين ، الذين بقوا بإسبانيا ، ولم تسعفهم وسائلهم الخاصة بالرحيل إلى شمال إفريقيا .

1- القرصنة :

وأمام عجز الدويلات المغاربية عن القيام بأي رد حاسم ضد إسبانيا ، لجأ أهالي المدن الساحلية المغاربية إلى تنظيم أنفسهم ، في إطار عمليات القرصنة البحرية ضد البوارج والموانئ الإسبانية . لقد نتجت فكرة تجهيز سفن القرصنة في الجزائر عن رغبة في الانتقام . وكان لا بد أن تتسم مثل هذه الاستعدادات والهجمات بالعنف والضراوة ضد الإسبانيين الذين تشكو منهم هذه الشعوب أكثر من أي أمة أجنبية

أخرى" [1] . هكذا تم تسليح السفن الخفيفة في معظم الموانئ الصغيرة التي حل بها المهاجرون الأندلسيون ، لتقوم بصورة منفردة أو جماعية بهجمات مباغتة على السفن والموانئ التجارية الإسبانية . والتي جعلت سكانها يرحلون عنها ، لعدم توفر الأمن والحماية بها من قبل إسبانيا ذاتها . وللإشارة ، فقد وجد البحارة المغاربيون عونا كبيرا من حيث المعلومات من قبل الأندلسيين ، بما مكنهم من إنجاز هجماتهم دون أن يتعرضوا لأخطار بها . وهو ما دفع بسكان المدن الساحلية وتجارها ، إلى رفع شكاوى إلى ملكة إسبانيا ذاتها .

وهكذا يمكن اعتبار ظاهرة القرصنة التي اعتمدها المغاربيون ، بمثابة ردة فعل تلقائية ضد عجز الإمارات المغاربية ، والمسلمين بصورة عامة ، عن الوقوف في وجه الإسبان المسيحيين في عقر دارهم . وللعلم فإن رجال البحر المسلمين قد اعتادوا واستمروا على مهاجمة البواخر التجارية والموانئ الإسبانية والبرتغالية أيضا، وذلك منذ مطلع القرن 12 م . ويمكن تعريف القرصنة (course) بأنها : " عملية مطاردة أو ملاحقة السفن التجارية لبلد معاد بصورة خاصة . وذلك عن طريق بارجة حربية ، يقوم بتسليحها خواص بإذن من دولتهم . لقد كانت حكومة الأتراك تعلم ، أنها إذ تشجع السكان في إنجاز مشاريعهم ، إنما تعمل على إثراء نفسها ، وتدرك أنها تعمل للمستقبل . وأنها سوف تتمكن فيما بعد ، من أن تجني بطريقة شرعية ، ثمار صناعتها أو سياستها ، مثل : رسوم الجمارك وغيرها "[2] .

وقد انتشرت هذه الظاهرة في البحر المتوسط . واتخذت صبغة الحرب البحرية الدائمة أو حرب الاستنزاف . ويتم على إثر هذه المطاردة ، الاستيلاء على السفن

(1) حمدان خوجة ، المرأة ، تقديم وتعريب وتحقيق د. محمد العربي الزبيري ، ش . و . ن ، ت . ، الجزائر ، 1982 ، ص : 177 ، 118 ، 119 .
(2) حمدان خوجة المرجع السابق .

التجارية المطاردة ، بما فيها وبمن فيها . حيث يقوم القراصنة فيما بعد ، بجرها نحو الميناء والاستحواذ عليها وعلى الغنائم التي بداخلها . ثم يمكن بعد ذلك أن يتم حرقها أو إغراقها . وتمارس هذه المطاردة الحربية بصورة خاصة ، من قبل قبطان السفينة الذي يلقب بـ" الريس " (Rais) لحسابه الخاص وبمباركة من حكومته . ولكن في بعض الحالات قد تعجز الدولة عن مراقبتها وتفلت العملية من سيطرتها . وهو ما يسمح بتطور العملية إلى " نهب " (Piraterie) يطال السفن المعادية (الإسبانية أو البرتغالية) وحتى بعض السفن الوطنية أو المحلية ذاتها . وللإشارة فإن ظاهرة القرصنة لم تخص الجزء الجنوبي من البحر المتوسط فحسب ، بل إنها شملت الجهة الشمالية منه . حيث باركتها الدول المسيحية كما الدول الإسلامية ، وهكذا فقد عمت كل البحار ، ولكنها تمركزت في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي خصيصا[1] .

عواملها

لقد عمت ظاهرة القرصنة البحر المتوسط ومارستها الدويلات المستقلة أو المنسلخة عن الإمبراطورية الموحدية ، بصفة رسمية أو لا رسمية . وقد نشطت عمليات القرصنة هذه بفعل عدة متغيرات داخلية وأخرى خارجية ، يمكن حصرها فيما يلي :

1- الوضعية الاقتصادية – المالية المتردية التي عرفتها الدويلات المغاربية المنفصلة . وذلك بعد نضوب مصادر الثروة ، مع اكتشاف البرتغاليين لطريق آخر لا ستيراد السلع والمواد الثمينة في الجهة الغربية من إفريقيا مع بداية القرن الـ 15 م ، لا يمر عبر فضاء البلدان الإسلامية المغاربية . وبهذا فقدت المكانة التجارية الكبيرة التي كانت تمثلها الموانئ والمدن التجارية التي تسيطر عليها ، أو التابعة لنفوذها .

(1) *A/Hamid Benachenhou, Op.cit , p: 125*

2- برزت ظاهرة القرصنة مع انحطاط تجارة القوافل وانقطاع طريق الذهب . وبالنظر إلى انخفاض المردود الزراعي ومنه ضعف الفائض . وهو الأمر الذي جعل الضغط الضريبي على السكان يبلغ حدا لا يطاق . هذه الأزمة المالية دفعت بالسلطة المركزية للدول المغاربية إلى البحث عن موارد أخرى خارجية للمال ، وقد تكون هذه العوامل مجتمعة وراء انهيار الممالك المغاربية المجهرية المتعاقبة على شمال إفريقيا نظرا لأنها كانت ترتكز على الدوام على المصادر الخارجية .

3- تحطيم أو إتلاف المحاصيل الزراعية ، عن طريق النهب والحرق من طرف القبائل الهلالية ، الوافدة من مصر بإيعاز من السلطة الفاطمية . بالإضافة إلى محاصرتهم المدن والعواصم وإلحاق الخسائر بها ، وذلك في منتصف القرن الـ 14 م .

4- فرار العديد من المسلمين من الأندلس باتجاه دول شمال إفريقيا واستقرارهم بالمدن الساحلية ، وإسهامهم بقسط كبير في تسليح البوارج الحربية وتمويل حملات القرصنة . إما بدافع الانتقام من إسبانيا ، أو بدافع الاستيلاء على الغنائم والأموال ومصادرة السفن التجارية التي يتم الاستيلاء عليها . شكلت " القرصنة " بهذه الكيفية مؤسسة تجارية حقيقية . وعلى سبيل الذكر ، فإنه يمكن اعتبار " بابا عروج " تمكن بالاستناد عليها ، عند تأسيسه إمارة الجزائر على أنقاض المملكة الزيانية وذلك عام 1517 م . وقد تميز قراصنتها بالتحرش والهجوم على الموانئ الإسبانية والاستحواذ على ما فيها [1] .

هذه العوامل مجتمعة دفعت بالدويلات المغاربية إلى تشريع القرصنة لأنها لم تكن قادرة خلال القرنين 17 م و18 م ، على الاستناد على إنتاج النشاط الفلاحي بل

(1) حمدان خوجة المرجع السابق .

ارتكزت على القرصنة . كما كانت هذه الحقيقة من ثوابت التطور السوسيو- تاريخي للفضاء الاجتماعي المغاربي وكانت وراء ظهور المخزن والسيبا[1] .

نتائجها

وعليه تعتبر هذه العملية مصدرا هاما لتمويل خزائن الدويلات المغاربية التي باركتها وشجعتها . وكذلك الشأن بالنسبة للبحارة الذين كانوا يمارسونها بصورة رسمية أو غير رسمية . وتتمثل الغنائم التي يتم الاستيلاء عليها في :

- **العبيد :** الذين يتم بيعهم في الأسواق ، وذلك بعد أن يختار السلطان أو الملك الأصلح منهم ، لاستخدامهم في خدمته في ميادين : النجارة ، البناء، الحدائق . أما النساء منهن ، فإما أن تسلم أو تتبع الحرم الملكي ، لكي يتم تشغيلهن في الموسيقى ، والطبخ . أما الأكثر جمالا منهن فتصبحن زوجات بعد انسلاخهن من ديانتهن الأصلية .
- **الغنائم :** أما السلع الأخرى فيتم اقتسامها بين قبطان السفينة الحربية وأعضاء طاقمه وبين الدولة التي تدعمه . " فعندما تجلب الغنائم إلى مدينة الجزائر تباع للسكان ، وتأخذ الخزينة العامة الخُمس (5/1) كنصيب لها ، على أن الخمس لم يكن تاما أبدا ، لأن الأشياء الثمينة كانت تؤخذ قبل الاطلاع على الغنائم ، ولكن الحكومة تغض الطرف ،حتى لا تفشل هؤلاء البؤساء الذين يعرضون أنفسهم للموت ، إما تعصبا للدين وإما رغبة في الحصول على الغنيمة " [2] .

(1) د. عدي الهواري ، الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، سياسة التفكيك الاقتصادي – الاجتماعي ، ترجمة جوزيف عبد الله ، دار الحداثة ، بيروت ، 1983 ، ص : 25 .

(2) *B.Souibeh, 1975: L'Alérie et les érie et les états unis signen un traité de oaix et d'amittie, In Le quotidien d'Oran, Algérie, 20 – 4 – 2006, p:9*

- **المعاهدات :** اضطرت عدة بلدان أوروبية وكذلك الولايات المتحدة ، بعد تحررها من الاستعمار البريطاني ، إلى عقد معاهدات مع الإيالات (Régences) المغاربية ، في شمال إفريقيا (مملكة المغرب وإيالات الجزائر وتونس وليبيا) ، وذلك للحيلولة دون تعرض سفنها التجارية للسطو أو المطاردة من قبل القراصنة المغاربيين ، وتنص المادة الأولى من " معاهدة السلم والصداقة " المبرمة يوم 6 نوفمبر 1797 ، بين ليبيا والولايات المتحدة الأمريكية على ما يلي : القوتان المتعاقدتان تلتزمان بمراعاة سلم دائم ، تحت ضمانة داي الجزائر ... " [1] .

إن فشل إسبانيا في القضاء على عمليات القرصنة ، التي وجدت دعما من قبل حكام مدينة الجزائر ، دفع بفرنسا لاغتنام هذه الفرصة واللعب على الوتر الحساس للمسيحيين عبر العالم ، وذلك بغية محاصرة " مدينة الجزائر " ، بصفتها وكرا للقراصنة وممارسة الاستعباد على المسيحيين – متناسية أن عمليات القرصنة تمارسها الدول المسيحية ذاتها – لكن الحقيقة أن الجزائر في تلك المرحلة كانت بمثابة حصن إسلامي عجزت الصليبية عن تحطيمه . وبقيت السفن التجارية الأوروبية تدفع لها الضرائب ، للحيلولة دون تعرضها لعمليات القرصنة . هذه المتغيرات كلها – على تضارب مصالح الدول الأوروبية فيما بينها – دفعت بإنجلترا نفسها ، والتي لم تؤمن بحجج فرنسا ، إلى تبرير غزو هذه الأخيرة للجزائر عام 1830 م . كل ذلك كان تحت غطاء تأمين سلامة السفن التجارية الأوروبية العابرة للمتوسط ، والقضاء على نظام العبودية وظاهرة القرصنة .

(1) د. خيري فارس ، المرجع السابق ، ص : 17 .

2- الحركة المرابطية (الإخوانية)

إذا كان لا بد من التعريف بالحركة المرابطية والإخوانية ، فهما بمثابة صورتين دينيتين متصارعتين في غالب الأحيان . وتوظفان أساليب متباينة ، رغم استنادها على الصلاة ، والتصوف ، والعودة إلى الأصل ، والحفاظ على القيم والأمل الذي لا ينطفئ. تؤكد الحركة المرابطية على خاصية الانتماء المحلي ، الذي تستلهم منه وتنوه بقيمته ، من خلال التوافق مع الممارسات الزراعية وفلكلور الأجداد . وبالمقابل فإن الحركة الإخوانية تعتمد على الزهد والممارسة الفردية ، التي تستخلص منها إمكانية الدعوة على نطاق أوسع .

وفي كلتا الحالتين ، فإن النتيجة ستكون واحدة في الميدان . وهي تتمثل في مؤسسة طهرية وهي : "الزاوية " . وبحكم تعدد مهامها وامتلاكها قبل كل شيء الرمز الديني، تشتمل الزاوية على منبر ، وفي بعض الأحيان على مسجد لتقديم الموعظة . وتحتوي الزاوية في غالب الأحيان على ضريح ولي صالح . وأكثر من ذلك ، تمثل الزاوية مدرسة للتعليم والتربية وملجأ للخدمات الاجتماعية المتنوعة : الصدقة ، المعونة ، الضيافة ، الحماية والفأل الطيب . وفي بعض الأحيان ، فهي تؤدي الأدوار الاستشفائية ، أو تمارس بها أعمال السحر(1) .

وفي واقع الأمر فقد كانت الحركة المرابطية والإخوانية عبارة عن ردة فعل تلقائية، واعتباطية في بعض الأحيان ، ضد الوجود الإسباني . وهي التي تصدت في بدايتها كظاهرة اجتماعية ودينية مغاربية للإمارات المجهرية ، التي اشتهر ملوكها بالبذخ والترف ، وعجزوا عن حماية الأهالي ضد الحملة الصليبية . وقد أعلن بعض الأمراء الولاء لإسبانيا ، وأصبحوا يدفعون لها الضرائب ويقدمون لها الهدايا للحصول على

(1) J.Berque, Linterieur du Maghreb, éd. Gollimard, paris, 1978, p:425 – 426.

رضاها . وكمثال على ذلك ، فقد توجه وفد من مدينة الجزائر برئاسة شيخها " سالم التومي " إلى مدينة بجاية ، التي كانت مقرا قياديا للقائد العسكري الإسباني " بيدرو نافارو " (Pedro Navaro) ، حيث أبرم معه اتفاقية يتعهد بموجبها بالخضوع لإسبانيا . وأفرج عن الأسرى النصارى . ثم توجه الوفد ذاته عام 1512 م إلى إسبانيا وقدم ولاءه للملك " فرديناند " . وقدم كعربون لهذا الولاء جزيرة مواجهة لميناء الجزائر ؛ حيث أقام الإسبان حصنا ووضعو بها حامية ومدفعية ، باتجاه مدينة الجزائر، التي تقع على بعد 300 م.

هكذا أنشئت الزوايا عن طريق تكتل السكان الأصليين ، عبر كل البلدان المغاربية، نتيجة للاحتلال المسيحي لشمال إفريقيا . وقد عملت هذه الزوايا على تنظيم البلاد من الناحية السياسية ، ودعمت المجهودات الحربية والقتالية ضد المحتلين المسيحيين . الأمر الذي مكنها من تحرير جزء هام من التراب المغاربي .
وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يمكن الاستشهاد بما حققه " أحمد ذهبي السعيد " ، الذي أنشأ إمارته على أساس حركة مرابطية . إذ تمكن هذا من كسر شوكة البرتغاليين في معركة بمنطقة وادي المخازن (بالمغرب الأقصى) ، وذلك بتاريخ 4 أوت 1578 م . والتي أطلق عليها " معركة الملوك الثلاثة " . وكانت هذه الهزيمة هي الأولى التي منيت بها الجيوش البرتغالية ، منذ وطأت أقدامها الشريط الساحلي للبلاد المغاربية (1).

وبعد المقاومة السياسية أو الرسمية للاستعمار الفرنسي ، التي تكفلت بها الإدارة التركية وأعيان المدن والتجار للاستعمار ، برزت المقاومة الشعبية الدينية التي قادها المرابطون ورؤساء القبائل ، تحت راية الجهاد في سبيل الله والأرض والشرف . حيث تولاها مرابطون وزعماء ، من أمثال " بن زعمون " " الحاج سيدي السعدي "،

(1) *A.Benachenhou, Op.cit , p: 107*

ثم الأمير عبد القادر [1] . وكذلك كان الشأن بالنسبة لانتفاضة المرابط " بلحداد " عام 1871 م ، الذي يرجع إلى " الزاوية الرحمانية " ، أو الإبادة التي تعرضت لها بعثة " فلاترز " (Flatters) بإيعاز من " الزاوية السنوسية " ، في ليبيا عام 1880 . هذه الوقائع السجالية بين الحركة المرابطية والاحتلال الفرنسي ، الذي حل مكان الاحتلال الإسباني ، توضح بصورة مأساوية ، طبيعة مقاومة الإسلام الإخواني والمرابطي للعدوان والاجتياح الصليبي الأوروبي للبلاد المغاربية في عمومها [2] .

IV . المظاهر السوسيولوجية للزاوية

من خلال تتبع الموقع الطوبوغرافي والفيزيقي لنشاطات الزاوية ، يمكن التمييز بين أربعة مظاهر أو أدوار اجتماعية أساسية تؤديها الزاوية في المجتمع المغاربي ، وهي :

- **المظهر الأول :** ويتمثل في الزاوية الصغيرة التي يمكن أن تجد صورتها الحقيقية في الغالب في شكل الزاوية – المسجد . يتمتع شيخ هذه الزاوية بمركز إمام أو شيخ مسير بسيط ، يقوم بالإشراف على إقامة الصلاة ، والعبادات ، وكإداري يشرف على مقدس ثانوي . وهو بمثابة وسيط بين الأهالي ، وموجه في أمور الدين الأولية .
- **الزاوية كمؤسسة :** ويشبه هذا المظهر زاوية " الهامل " ، التي قام مؤسسها " محمد بن أبي القاسم " بربطها عام 1880 م بثلاثين مأوى لطلبته وزواره . وهي بهذا المعنى ، تتجاوز مجرد ضمان تأدية الواجبات الدينية أي العبادات ، وهي تتمتع بنوع من الاستقلال المادي والإداري .

(1) د. أبو القاسم سعد الله ، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ، ش.و.ن.ت. ، الجزائر ، 1982 ، ص : 133 .
(2) *J.Berque, Op.cit , p: 426*

- **الزاويـة الإخوانيـة :** وهـي تشـكل أكثـر المظـاهر انتشـارا والـذي اعتمـدت عليـه الإدارة والمعرفـة الكلونياليـة ؛ بحيـث تـم إلصـاق أو تطعيم الزاويـة بالإخوانيـة ، منـذ القـرن 18 م ، مثـل " الشـيخية " ، " الرحمانيـة " ، " التيجانيـة " ، " السنوسـية " (فـي ليبيـا والجزائـر) و "الطابيـة " و" الدرقاوية " في نهاية القرن 18 م (في المغرب الأقصى) .
- **الزاوية كإمارة :** وهي التي قد تضم النوعين أو المظهرين السابقين معا ، مثلمـا هـو الشـأن بالنسـبة للزاويـة " الرحمانيـة " بمنطقـة الشـلالة ؛ التـي يشرف عليها " بنو علي الشريف " ، الذين وجدتهم السلطة الفرنسية وهم يسيطرون علـى كنفدراليـة متآلفـة ، مـن أربـع (4) قبائـل تفرعـت إلـى 41 قرية . ما يتميز به " بنو علي الشريف " أنهم رجال عبادة وسيوف . وهم لذلك يحقون الحق ويلقون الـدروس ويجمعون الضـرائب ، وبإمكـانهم عند الضرورة تكوين جيش يبلغ 4800 بندقية . وقد أدت فعالية إدارتهم وقوة سلطتهم إلـى اعتبـارهم تـابعين شـكليا للسـلطة المركزيـة . ويعملـون علـى ضمان الأمن والولاء لها [1] .

لقـد رأت الحركـة المرابطيـة بـأن أسـباب الهمـوم التـي حلـت بالبلـدان المغاربيـة وسكانها، تعود إلى الانحلال الخلقي وضعف الجانب الروحي وعدم الامتثـال لمبـادئ الدين الإسلامي . إن الوسيلة الوحيدة للقضاء على الجسم الغريب ، الـذي يمثلـه الوجـود الأجنبي المسيحي (الإسباني والبرتغالي ، وفيما بعد الفرنسي والإيطـالي) تتمثـل فـي العودة إلى المنبع الديني الأصلي . وبهذا فقد ارتأى المصلحون في تلقين تعاليم الإسـلام الصـحية وتعميمهـا ، الوسيلـة الكفيلـة بإعـادة بنـاء المجتمـع المغـاربي ، وتربيـة الأفـراد

(1) A.Nadir, Les orders riligieux et la conquete francaise, In Actes du 3e Congres dhistoire et de la civilisation du Maghreb, T2, éd. O.P.U., Alger, 1987, p; 339

وإكسابهم الطباع الإسلامية الحسنة ، لدرء المفاسد والعمل على مواجهة المحتلين الأجانب . وهكذا فقد استأنس " بن تومرت " بالحركة المرابطية ، لتكوين المؤمنين روحيا وبدنيا . ذلك انطلاقا من التربية الملقنة ، في " الرباط " (أي المركز) والتي يمكن نشرها فيما بعد عن طريق هؤلاء الأتباع . والأسس التي تعتمد عليها التربية المرابطية هي أصول الدين والتي يشرف عليها المؤسس أو الشيخ . ويؤم الزاوية الأتباع الذين يبدون له الولاء لها . حيث يوجههم روحيا في ضوء الممارسات الدينية أوالغيبية . ولا يقتصر دور الزاوية على الجانب الروحي (الديني والغيبي) بل يتجاوز ذلك إلى تحضير الأتباع للأعمال البدنية والمادية ، مثل : التكوين العسكري لمجابهة الأعداء في الداخل والخارج . بالإضافة إلى إعانة الأهالي وإنجاز المشاريع الزراعية ، بهدف تحسين الإنتاج ، عن طريق بناء قنوات الري، زيادة على بناء المدارس والمساجد .

يطلق على التابع للزاوية اسم " الصوفي " لارتدائه لباسا (مرقعا ، خرقة ، أو دربالة) من الصوف . وهو يأكل قليلا وينام قليلا ، فهو : " يتواجد في أمان الله أو بين يدي الله ، لأجل الصلاة والتقرب منه بهدف أن يقبل ، من بين أخياره . وإن أمكن ، رؤيته : " هذه هي مرحلة السعادة القصوى أو " الإشراقة " (Illumination) . وهكذا يمر المريد بعد عدة مراحل من الزهد والتقرب إلى الله ، الشوق ، الحب ، والأنس .. ومن بين خريجي الزوايا ، نذكر : " أبوشعيب أبومدين " ، " عبد الرحمن الثعالبي " ... و هكذا يكون المؤمن ، قد اجتاز عدة مراحل إذا عمل بإخلاص وطاعة ليصل إلى حالة أو مرحلة " القطب " أو " الغوث " . هذا الأمر ، دفع ببعض المتطرفين أو الغلاة إلى الاعتقاد أن المؤمن المتعبد بإمكانه أن يمتزج بالجوهر الإلهي (أو الروح الإلهية) " مثل الفراشة التي تحترق بالنار" . ومن أهم الشيوخ المشهورين، في عالم الصوفية والزهد : " مولاي عبد القادر بن حسين بن صليح " المنحدر من

فاطمة وعلي . و " على جيلاني " نسبة إلى جيلانة أو كيلانة بالعراق ، وهو يعتبر الزعيم الروحي للجمعيات الدينية في شمال إفريقيا والتي يطلق عليها عامة " الزاوية القادرية ". ويكون شيخ الزاوية أتباعا له ، يدعون بـ"المريدين" أو "الخدام" ، أو"الإخوان" أو "الفقراء" .

وهكذا ، يمكن تقديم تفسير للعودة الاستبطانية (النفسية) القوية للإسلام "المرابطي" و "الإخواني" ، إبان مراحل الاستعمار الصليبي والذي يتفجر ، من حين لآخر . ويتزامن المنحنى الوجودي على المستوى الاجتماعي والوطني ، مع تعاقب وتتابع مراحل الاستعمار الأجنبي أو الأزمة الاقتصادية الطويلة ... ويتحول الرجل التقي إلى محارب يحمي أسفل بطنه ، بيده اليسرى ويمتطي سرجه بخفة ، لم يعهدها في دعائه . ويلتف حوله أتباعه شاهرين أسلحتهم ، متيقنين من الحصانة التي تمنحها لهم " التبريدة " [1] .

أ- التنشئة الاجتماعية في الزاوية .

ويمكن تقديم أهم الوظائف التي تؤمنها الزاوية ، في المجتمع القبلي والريفي . وذلك من خلال تعدد وظائفها ، حسب المواقف . ويسجل للزاوية أنها تقدم خدماتها في المجالات : الدينية المقدسة ، والاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية . وذلك على المستويات التالية :

1- فبصفتها ظاهرة اجتماعية ، وليدة أزمنة تسلط أو عدوان ، أو نتيجة للتحولات القاعدية للتراكم المادي ؛ فقد حلت الزاوية مكان القرصنة ، عن طريق التحصيل الضريبي لصالح النظام البابليكي . وهكذا ، فالزاوية هي عبارة عن مقر اجتماع ، ونزل وخدمة وضيافة . ذلك

(1) *J.Berque, Op.cit , p: 428*

أنها تنظم المعازيم وتمنح الملجأ للزبائن وتضمن المبيت والمأكل للطلبة . بالإضافة إلى كونها تعالج المرضى وتقدم معونة للمحتاجين...

2- وفي الميدان الاقتصادي ، يمكن للزاوية أن تسهر على تسيير القنوات التجارية الكبرى بين الشمال والجنوب : " الفوائد التي تحقق من هذه الخدمات ، يمكن أن تكون معتبرة ، حسب " أ. برنار " (A.Bernard) خلال 1911 م . وفي الأرياف ، يمكن أن تخصص لهذه الزوايا الأرض التي يقوم الأهالي بخدمتها ؛ بحيث تخصص مدخولا لمساعدة المدرسين والطلاب . كما قد يخصص بعض المتبرعين من أهل الخير ، قسطا من محاصيلهم السنوية ، للزاوية التي توجد بمنطقتهم [1] .

3- وبصفتها هيئة تحكيم بين المتنازعين وحماية للمستضعفين ، تتدخل الزاوية لتسوية النزاعات العائلية والقبلية وبين السلطة المركزية (البايليك في العهد التركي) والقبائل المتمردة ؛ كما تمنح الحماية للمضطهدين . كما أن السلطات الكلونيالية الفرنسية ، قد شجعت دور الزاوية للتحكيم بين الأهالي . والذين تقدم لهم خدمة كبيرة ، بتسهيل الحلول الاتفاقية في القضايا العائلية . وهكذا ، تتحاشى الدخول في محاكمة مفلسة ...

4- وباعتبارها مركز تعليم وإشعاع ثقافي ، تقوم الزاوية بتكوين الإطارات المسيّرة الدينية والقضائية . إن هذا الدور ، لإنتاج الإطار

(1) د. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ، ص : 164 .

المثقف يمنح للزاوية مركزا خاصا ، في مجتمع يفتقد إلى مؤسسات متخصصة (مدارس تعليم عال ، معاهد أو جامعات) . وحسب " الحفناوي " فإن زاوية " سيدي السعيد بن أبي داود " الموجودة بمنطقة القبائل في الجزائر ("آقبو") كانت من " أفضل الزوايا خلال القرون الثلاثة الأخيرة " ، فقد كانت مركزا لنشر العلوم ، والدين ، والنحو ، والفلك والهندسة " ...

5- وكفاعل سياسي ، فالزاوية هي وسيط مفضل ، بين الدولة والمجتمع الريفي : إذ ارتكز البايليك التركي والدولة الكلونيالية ، على العائلات المرابطية للتحكم في البلاد ، لكن هذا لا يجعلنا نذهب مع " ع . العروي " للتأكيد على أن ازدهار زوايا العائلات المرابطية يشكل نظام المخزن ، نظرا لأن علاقة الإقطاعية والتبعية (Vassalité) هي شكلية أكثر منها واقعية .

ب – علاقة الزاوية بالسلطة المركزية

إنه من الضروري توضيح هذه العلاقة ، وذلك عبر معارضة أطروحة الباحث الفرنسي " إ . جيلنار " (E.Gellner) الذي يرى بأن الزاوية هي أولا شكل من أشكال التنشئة الاجتماعية الإنسانية . ذلك أن أصغر زاوية لها دور مركزي في العالم الريفي والرعوي في سيرورة نشر القيمة الإسلامية أي الشرع . وبهذا فالنظام الذي تخضع له هو في النهاية لا يختلف عن دور المخزن : وكدليل على ذلك أن وجود الزوايا – الإمارات – يعمل مثل الدولة تماما (Quasi – état) . إن المخزن الذي يتلاءم مع هذه الوضعية لا يتدخل في إدارة وتسيير شؤونها ، لذلك يمكن اعتبار علاقة الزاوية بالمخزن محتواة في علاقة الحزب بالدولة في المجتمعات المعاصرة ؛

فالحزب الذي هو ملك للمجتمع السياسي أو يبقى في وضعية بين بين : والدليل على ذلك أن الدولة القادرية صارت ممكنة . وكذلك فإن الطريقة القادرية قد منحت الشرعية للدولة التركية . لكنها ابتعدت عنها شيئا فشيئا مع بداية القرن 18 م ، إلى أن انقطعت علاقتهما عشية اجتياح الجزائر من قبل فرنسا [1] .

كما أن الطريقة الدرقاوية ، رغم اتهامها بالتحريض من قبل نظام المخزن المغربي، قد قامت بإثارة عدد من القبائل ضد السلطة المركزية . لكن يجب الاعتراف هنا أنه مع بداية الحملة الفرنسية والضعف الذي ميز الزوايا ، فإن هذه الأخيرة استبدلت دورها التقليدي بدور مناوب للنظام الكلونيالي . فزاوية " أولاد سيدي الشيخ " بقيت هي الأخيرة التي سلمت أسلحتها للحملة الفرنسية . وصارت أفضل معين لفرنسا في الجنوب الوهراني . وقد كتب الحاكم العام (G.G) إلى رئيس المجلس : " بأن هذا الخضوع هو الوسيلة الأكثر وضوحا لتهدئة العقول بصورة نهائية . إننا نمتلك اليوم بين أيدينا التأثير القوي ، المادي والمعنوي لأولاد سيدي الشيخ : " إنها هي (أي الزاوية) التي مكنت مفوضينا في منطقة " القرارة " (بالجنوب الجزائري) من بلوغ الهدف . ويمكننا الدخول إليها كلما أردنا ذلك دون طلقة بندقية "[2] .

ج – تجدد الحركة

إن تجدد الحركة المرابطية ، بعد مرحلة الانكسار ، كان على أساس طموح مجتمعي لإعادة تكوين نسيج العلاقلات الاجتماعية التقليدية (ما قبل الاستعمارية) . وذلك بالالتفاف حول مرابطين حقيقيين أو وهميين ، حيث تحيي " الأعياد السنوية والاحتفالات الموسمية في أشكال الزردة " أو " الإطعام " . وتعمل هذه المناسبات

(1) د. بو خريسة بوبكر ، الدولة والمجتمع ، دراسة سوسيولوجية نقدية في تاريخانية المجتمع المغاربي ، دار طلاس ، دمشق ، 2005 ، ص : 143 – 145 .

(2) *A.Nadir, Op.cit , p: 348.*

علـى جمـع الأفـراد الوافـدين مـن نـواح متعـددة ، والـذين قـد ينتسـبون إلـى قبيلـة قديمـة . تشـكل مثـل هـذه المناسـبة لكـل فـرد فرصـة لإعـادة تجديـد الارتبـاط بأهلـه المشـتتين أو المتوزعين . وهو ما يشـحنه بـروح الانتمـاء إلـى قبيلـة كانـت لهـا هيبـة وبـأس شـديدان . كما تمثل هذه المناسبة أيضا ، مجالا للتوازن الاجتماعي – النفسـي للفـرد ، الـذي يكـون المجتمـع التقليـدي قـد افتقـده فـي مرحلـة الاسـتعمار . وبهـذا المعنـى تحظـى المعـايير الاجتماعية – النفسية الموروثة بقيمة لا يستهان بها ، لكونـها جددت اللحمـة المجتمعيـة، في إطار الواقع الاجتماعي الحديث البائس .

مـا يمكـن استخلاصـه مـن دراسـة مرحلـة تفتـت الإمبراطوريـة الموحديـة هـو تكـون دويلات صغيرة مجهرية على أنقاضها . والتي لم تكن قـادرة علـى رفـع التحـديات التـي واجهت المجتمع المغاربي ، خصوصا مع سقوط آخر الإمـارات الإسـلامية فـي إسـبانيا (غرناطة) . كما سمح هذا الضعف والوهن بنقل منطقة المواجهة الإسـلامية الصـليبية من جنوب أوروبا إلى شمال إفريقيا . من هنا تجلى للأهـالي الضـعف الكبيـر الـذي ميـز دولهم ، بالإضافة إلى تفشي الأخلاق المنحرفة لـدى حكـامهم ، رغـم النجـدة التـي قـدمها الأتـراك العثمـانيون بمنطقتـي : المغـرب الأوسـط والأدنـى . لكنهـا لـم تكـن لتعيـد لهـم الحمايـة الكافيـة والكرامـة المفقـودة ، بـالنظر إلـى سـوء الأحـوال الاقتصـادية وضـعف مصـادر العيش والمال ، مع فتح ممر آخر بإفريقيـا الغربيـة من قبـل البرتغـاليين . هـذه الوضعية أضعفت مكانة المجتمع المغاربي بصورة عامة ، وصـارت أوروبـا تحاصـره اقتصـاديا وعسـكريا . وهكـذا لـم يجـد السـكان الأصـليون مـن مخـرج للأزمـة التـي يعايشونـها سوى الاعتماد على أنفسهم ، وتوظيف ما لديهم من إمكانيـات ماديـة وبشـرية وروحيـة لمجابهـة الأخطـار المحدقـة بهـم . **وقـد ترجمـت هـذه المجهـودات مـن خـلال اعتماد أسلوبين أو نمطين اثنين من المقاومة للوقوف في وجه الحملات الأجنبية .**

أولهما القرصنة لمهاجمة السفن التجارية العابرة للبحر المتوسط . والتي اضطرت على إثرها الإمبراطوريات الأوروبية إلى دفع الضرائب إلى حكام الإمارات المغاربية لضمان مرور سفنها بأمان . كما مكنت هذه العمليات البحرية من الانتقام من الإسبان في عقر دارهم وذلك بمهاجمة الموانئ التجارية الإسبانية والانتقام من طرد الأندلسيين والتنكيل بهم من قبل الإسبان ، في حملة شوفينية دينية صليبية .

ثانيهما تنظيم السكان الأصليين لمواجهة الأعداء في الداخل والخارج ، من قبل الحركة المرابطية المنظمة في الزوايا ؛ التي تلقن مريديها مبادئ الدين الإسلامي الأصلية . والتي يجد الأهالي في العودة إليها الأخلاق الإسلامية العالية التي بإمكانها القضاء على الفساد ، الذي ميز الحكام وكان سبب البلاء الذي أصاب بلاد الإسلام . كما تقوم بتدريب الأهالي ، على أساليب المقاومة والقتال ضد الغزاة . وهذا ما وجد فيه السكان الأصليون ملجأ لإعادة الاعتبار لأنفسهم ، خاصة وأن نشاط الزوايا كمحور مجمع ، يعمل على نشر فضائل الإخاء والتعاون بينهم في مجالات : الزراعة، والبناء ، والمصالحة بين القبائل والعائلات . هذا كله في غياب حكم مركزي قوي ، يبسط سلطة الدولة ويضمن الحماية للسكان .

تمثل إذن ، ظاهرتا القرصنة والحركة المرابطية " سلطة مناوبة " عن السلطة المركزية . تلك السلطة التي ضعفت سواء في مرحلة انحطاط الحضارة العربية – الإسلامية في منطقة شمال إفريقيا ، أو كردة فعل اجتماعية ضد التحرشات الصليبية على سواحل الممالك المغاربية الضعيفة . كما شكلت الزوايا حلقة التفاوض بين السكان أو الأهالي ونظام البايليك التركي ، وكذلك بينهم وبين ممثلي النظام الكلونيالي (الفرنسي والإيطالي) ، الذي اجتاح منطقة شمال إفريقيا في بداية القرن 19 م ، وإن تحولت فيما بعد ، إبان استقرار الاستعمار الفرنسي إلى وساطة بينه وبين الأهالي . مع

العلم أن ظاهرة القرصنة قضي عليها مع اجتياح مدينة الجزائر . في حين بلغت الحركة المرابطية والزوايا مرحلة الوهن ، إبان مواجهة النظام الكلونيالي ، مع بداية القرن 19 م . بحيث اقتصر دورها على تلقين شؤون الدين ، أو القيام بالتوسط بين الأهالي والسلطة الاستعمارية . وهو ما أضفى عليها طابع الفولكلور ، مع نهاية الاستعمار ، وعند عجزها على رفع التحديات .